بين الإنسان والعالم...
مسافةٌ من الفهم

د. لطفي النحياني

إشراف مجلة نور الثقافية
تدقيق: أ.حجاج أول عويشة

مجلة نور الثقافية

بين الإنسان والعالم... مسافةٌ من الفهم

ليس كلّ من يرى يُبصر...
وليس كلّ من يسمع يُصغي.
العالمُ أمامنا ككتابٍ مفتوح، لكننا لا نقرأه إلّا بقدر ما نقرأ أنفسَنا.
فإن كان القلبُ مغلقًا، فكلّ صفحات الحياة أوراقٌ بيضاء، لا حروفَ فيها

د. لطفي النحيلي

بين الإنسان والعالم... مسافةٌ من الفهم
الكاتب: د.لطفي النحيلي/ المغرب
التصنيف: مجموعة خواطر
تدقيق: أ. حجاج أول عويشة
تنسيق داخلي وخارجي: أنسام جاسم
إشراف مجلة نور الثقافية

بين الإنسان والعالم... مسافةٌ من الفهم

الكاتب المغربي د. لطفي النحيلي

بين الإنسان والعالم... مسافةٌ من الفهم

ليس كلُّ من يرى يُبصر...
وليس كلُّ من يسمع يُصغي.
العالمُ أمامنا ككتابٍ مفتوح، لكننا لا نقرأه إلّا بقدر ما نقرأ أنفسَنا.
فإن كان القلبُ مغلقًا، فكلُّ صفحاتِ الحياة أوراقٌ بيضاء، لا حروفَ فيها.

الرواقيُّ يعلم أنَّ فهمَ العالم يبدأ من الهدوء الداخلي،
ومن التسليم بأنَّ الكون لم يُخلق ليخضع لميزان أهوائنا،
بل خُلق بميزان الحقِّ الذي وضعه الله،
والذي لا يميل إلّا للعدل، ولو بعد حين.

كم من إنسانٍ يحاول أن يُغيِّر الدنيا وهو لم يُصلِح بيتَه؟
وكم من خطيبٍ يرفع صوتَه بالحق، بينما قلبُه غارقٌ في الباطل؟
إنَّ البداية الحقيقية ليست في ساحات الجدل ولا في ميادين الصراع،
بل في غرفةٍ صغيرة، يجلس فيها المرءُ مع نفسه،
يضع قلبَه أمام الله، ويسأله أن يُنقِّيه قبل أن يمدَّ يده ليغيِّر شيئًا في الكون.

اعلم أنَّ العدل الذي تريدُه للعالم،
لن تراه ما لم تزرعه أوَّلًا في نفسك.
والرحمة التي تشتاق أن تسود البشر،
لن تأتي ما لم تحياها في بيتك ومع مَن حولك.
فالعالم ليس كيانًا بعيدًا عنك...
العالم يبدأ من طريقة حديثك مع الجائع،
ومن دعوةٍ خفيَّة ترفعها لله أن يرفع عن الناس البلاء.

الفلاسفةُ الرواقيون فهموا أنَّ الصراع الأكبر ليس مع الملوك ولا مع
الجيوش،
بل مع الفوضى التي تعصف بالقلب،
ومع الغرور الذي يُزاحم الإخلاص.
والمؤمنُ يعرف أنَّ النصر الأكبر هو أن تُسلِّم قلبك لله كاملًا،
حتى لو انهارت أمامك كلُّ خططك،
فأنت في عينه بخير،
وفي رحمته آمن.

يا صديقي، العالم سيمضي...
الليلُ سيعقبه نهار، والربيع سيتبعه خريف،
والناس سيُولدون ويموتون،
لكنَّ الشيءَ الوحيد الذي سيبقى في صحيفتك،
هو ما فعلتَه لله،
لا ما فعلتَه لرضا الناس أو خوفًا منهم.

فلا تجعل ضوضاءَ العالم تسرق صوتَ قلبك،
ولا تجعل ظلمَ البشر يطفئ نورَك.
وإن وجدتَ نفسَك تائهًا بين الفوضى،

قف لحظةً... ارفع بصرك للسماء،
واستحضر أنَّ الله يرى ويعلم،
وأنه أقرب إليك من نفسك.

وحين تعود لتمشي في دربك،
امشِ بخطوةِ الواثق، لا العجول،
وامضِ في الحياة كما يمضي النهر،
هادئًا في العمق، نافعًا في المسير،
عارفًا أنَّ رسالتك ليست أن تغيِّر الكون كلَّه،
بل أن تترك في قلبه أثرًا يشهد أنك كنت عبدًا لله،
قبل أن تكون أيَّ شيءٍ آخر.

أيُّها الراحل، ماذا تركتَ خلفك؟

أيُّها الراحل،
ها نحن بعدك...
نتأمَّل الفراغ الذي خلَّفتَه،
ونحاول أن نرثي غيابك،
لكنَّ الكلمات تضيع منَّا،
كأنك أخذتَ معها اللغة حين رحلتَ.

لم تُخبرنا أنَّ الفقد لا يبدأ حين تُغلق العيون،
بل حين تُفتح، ولا تجدك بيننا.

كلُّ شيءٍ من حولنا يُشبهك...
صوتُ الباب، رائحةُ القهوة، كرسيُّك الفارغ...
وكلُّها لا تقول شيئًا... لكنَّها توجِع.

هل رحلتَ لأنك اكتفيتَ من العالم؟
أم لأنَّ العالم لم يمنحك ما تستحقُّ؟
هل كنتَ ترحل كلَّ يومٍ بصمت، ونحن لا نلاحظ؟
نعم، نحن نعيش معك... لكنَّنا لم نكن نراك.

أيُّها الراحل،
لماذا نحبُّك أكثر بعد الغياب؟
ولماذا لا نفهمك إلَّا حين نصبح عاجزين عن الوصول إليك؟
هل هذه لعنةُ الفقد؟
أم حكمةُ الحياة التي لا تُقال إلَّا بعد فوات الأوان؟

تركتَ لنا ملابسَك،
كتبَك،
ضحكتَك في مقطعٍ صوتيٍّ قديم...
تركتَ صورًا،
وأشياءَ بسيطة... لكنَّها اليوم، عالمٌ بأكمله.

تركتَنا نعيد قراءة ملامحك،
ونبحث عن رسائلَ مخفيَّة في نظراتك،
كأنك كنتَ تهمس لنا بشيء... ولم نفهمه،
وكأنك كنتَ تودِّعنا منذ زمن... ونحن مشغولون عنك.

هل تعرف ماذا تركتَ حقًّا؟

تركتَ شيئًا لا يُحمَل...
لكن يُثقِل الظهرَ والروح:
الغياب،
ذاك الوحش الذي لا نراه،
لكنّه يأكل كلَّ لحظةٍ دافئة،
وكلَّ ضحكةٍ حقيقية،
ويترك وراءه سؤالًا لا جوابَ له:
"ماذا لو كنّا انتبهنا أكثر؟"

أيُّها الراحل،
نحن لسنا بخير.
نحاول أن نكون،
لكنَّ كلَّ شيءٍ بات ناقصًا من دونك،
حتى نحن... لم نعد نحن.

أتعلم؟
حين تموت، لا تموت وحدك...
نحن أيضًا نموت، لكن على دفعات،
كلَّ صباحٍ جديد،
وكلَّ ذكرى مُباغِتة،
وكلَّ مرةٍ نسمع فيها اسمك... ولا نراك.

لا وجودَ لاختام،
لأنك لم تُغادر تمامًا...
أنت موجودٌ في كلِّ صمت،
وفي كلِّ دمعة،
وفي كلِّ سؤالٍ لا يُطرَح،
وفي كلِّ حلمٍ نراك فيه، فتوقظنا الدموع.

"أيُّها الراحل... لم تمت، بل صرتَ غيابًا يُشبهك."

رحمةُ الله عليكِ يا أُمّي الغالية

أيُّها الرفيق المنُهك

أيُّها الرفيقُ المنهكُ في متاهاتِ الوجود،
يا مَن صنعتَ لنفسِك من التَّعبِ ملاذًا، ومن الأملِ ضوءًا يتوهَّج في العتمة، ما أروعَ رحلتَك على صفيحِ الأحلامِ الساخن! أتعلم؟ نحن، يا صاحبي، في معتركِ السعي أسرى وهمٍ جميل: نطلبُ الغايةَ وطوبى لنا بالمسير، فإذا بالاستمرارِ نفسِه يصيرُ وردتَنا، وعرقُ التَّعبِ عطرًا ينبثُ من أجسادِنا المنكسرةِ العاتبةِ على القدر.

في زمنٍ يُخطَف فيه الحلمُ من بين الأجفان، نصحو ولا ندري: أمتعبون أم هجَرَنا الأملُ بعيدًا؟ النَّفسُ تصرخُ طلبًا للإجازة، للانعتاقِ المؤقَّت من سباقٍ لم نختر مضمارَه... لكن، يا ابنَ فراديسِ الأحلام، لا تتركِ الطريقَ إن مللتَ، واعترفْ بحقِّك في الوقوف، فالعظماءُ وحدَهم مَن يُتقنون فنَّ الإنصاتِ لجروحِهم إذ تُغنِّي: "خُذني إلى برِّ الرَّاحةِ كي أتنفَّس، ثم أواصِل".

دلِّل ضعفَك كما تُدلِّل زهرةً برِّيَّةً رتوت قلبَك، واحتفِظ بخيطِ الوصالِ الرَّفيع بينك وبين ما تُحب، ولو بدا ذلك مستحيلًا... فالأحلامُ التي تُقاوِم الموتَ في الداخل، وحدَها تُوهَب الخلود. أنتَ الفارسَ والشاعرَ، والطفلَ الحالمَ الذي يخيط أشرعةَ النَّجاةِ من قماشةِ الإرادة، مهما هبَّت عواصفُ الإنهاك.

ويبقى السؤالُ معلَّقًا بإزارِ الليل:
هل يكفي الوصلُ الخفيفُ بالحلم ليُعيدَ للرُّوحِ ربوتَها الأولى، أم أنَّ النهرَ، إذا أعياه العطشُ، يكتفي بندى الحنين؟

صوتُ الإنسان

في زمانٍ يُقاس فيه الإنسانُ بما يملك، قرَّرتُ أن أبحثَ عمَّا لا يُشترى:
صوتَ العقلِ حين يتأمَّل...
وصمتَ القلبِ حين يتألَّم...
وخُطى الرُّوح وهي تبحث عن معناها وسطَ الزيف.

تعلَّمتُ أنَّ الفهمَ هو أوَّلُ أبوابِ الحرية...
وأنَّ أجملَ ما في الحياة ليس الجواب، بل السؤالُ الذي لا ينام.
وأنَّ الغموضَ ليس عدوًّا، بل صديقٌ خجول... ينتظر أن نجلس معه دون خوف.

فكَّرتُ كثيرًا...
فوجدتُ أنَّ أعمقَ المعاني تُولَد من الصَّمت، وأنَّ أعظمَ التغييرات تبدأ بكلمة، بل بنية.

وإن سألتَني ما الذي يبقى بعد كلِّ هذا؟
سأقول:
يبقى ما زرعتَه في الآخرين من دفء،
ويبقى ما فهمتَه عن نفسِك حين جلستَ وحدك،
ويبقى الفنُّ...
ذلك الذي حفظك من الموتِ بالحقيقة.

حين يبحث الإبداعُ عمَّن يحتضنه بصدق...

في عالمٍ يزدحم بالصوتِ والصورة، يظلُّ الإبداعُ نداءً خافتًا لا يُلبّيه إلَّا مَن آمن بروحِه، لا مَن طارد مجدَه.
الإبداعُ لا يختار القلوبَ العابرة، بل يسكن النفوسَ الصادقة، تلك التي تؤمن بالفكرة حتى قبل أن تُصبح واقعًا.
إنَّه لا يحتاج إلى ضجيج، بل إلى مَن يُصغي له بعينِ القلب، ويمنحَه من الصبرِ والعزم ما يُترجم الخيالَ إلى حقيقة.

أيُّها الحالم، لا تنتظرْ من العالم أن يمنحكَ الضوء... كُن أنت النور.
ازرع فكرتَك في أرضِ الإرادة، واسقِها بماءِ الاستمرارية، وسيتفتَّح الإبداعُ زهرًا يُدهش العيونَ ويُبهج الأرواح.

لا تدعِ الشكَّ يسرق منك لحظةَ يقين، ولا تسمحْ لليأس أن يُطفئ فيك جذوةَ الحلم.
أنت قادرٌ، ما دمتَ تؤمن بنفسك.
أنت مُلهِم، ما دمتَ لا تتنازل عن جوهرِك.

فامضِ بخطى الواثق، وتذكَّر:
"الإبداعُ لا يُضيء إلَّا حين يُعانق الصدق."

قيمةُ الحياة... تبدأ من الآخر

في عالمٍ يزداد فيه الجفاء، وتَقِلُّ فيه اليدُ الممتدَّةُ للغير، تصبح قيمةُ الإنسان رهينةً بمدى قدرتِه على احتضان الآخر، حُبًا، وصداقةً، وتعاطفًا.

ليست الحياةُ ما نملِكُه، بل ما نمنحُه.
وليست القيمةُ فيما نُراكمُه، بل فيمَن نصبحُ حين نُشارك.
قيمةُ حياتِك لا تُقاس بعدد أنفاسِك، بل بعدد القلوبِ التي جعلتَها تنبض أملًا من جديد.

أن تُحِبَّ، أن تتعاطفَ، أن تفتح صدرَك لإنسانٍ مُنهَك... هذا هو الوجودُ في أعمقِ تجلِّياته.
الحبُّ لا يُنقِصُك، بل يُعيد تعريفَك.

فكِّر قليلًا...
هل أنت موجودٌ لأجل ذاتِك فقط؟
أم أنَّ لوجودِك معنًى حين تَعبُر في حياة أحدِهم مثل ضوء؟

سؤالي لكم الآن:
مَن هو آخرُ شخصٍ غيَّر فيك شيئًا لمجرَّد أنَّه أحبَّك أو استمع إليك بصدق؟

تجرأ... على أن تعرف

"تجرأ على المعرفة." — إيمانويل كانط

المعرفةُ ليست ترفًا، بل تحرُّر.
أن تعرفَ، هو أن تُزيل عن عينيك غشاوةَ التلقين، وأن تُنير طريقَك وسطَ عتمةِ الجهل.
الجهلُ مريح، لكنَّه يُبقيك سجينًا.
المعرفةُ مؤلمةٌ أحيانًا، لكنَّها تُطلقك حرًّا.

تجرأ على أن تسأل، حتى لو سَخِروا.
تجرأ على أن تقرأ، حتى لو مَلُّوا.
تجرأ على أن تُفكّر... حتى لو اتَّهموك بالمبالغة.

المعرفةُ ليست فقط كتبًا تُقرأ، بل طريقةٌ جديدةٌ لرؤيةِ الحياة...
أن تفهمَ نفسَك، وتفهمَ الآخر، وتُدركَ أنَّ العالمَ أعمقُ من سطحِه.

سؤالي لكم الآن:
ما هو الشيءُ الذي كنتَ تجهلُه، ولمَّا عرفتَه، تغيَّر شيءٌ في داخلك إلى الأبد؟

الطّريقُ الَّذي يعبرُنا

يَمضي الإنسانُ في دُروبِ الحياةِ لا كما يشاءُ، بل كما يُدفَعُ، محمولًا على أكتافِ السؤالِ، يُفتِّشُ في العابرِ عن الثابتِ، وفي الضجيجِ عن الصمتِ الَّذي يشرحُ له مَن يكونُ.

فهل نحنُ مَن نرسُمُ الدُّروبَ؟ أم أنَّ الدُّروبَ حفرتْ فينا أخاديدَها، وطَبعتْنا قبل أن نضعَ أقدامَنا فوقَ تُرابِها؟
وهل اختياراتُنا حرَّةٌ حقًّا، أم أنَّها محضُ وَهْمٍ يُتقنُ ارتداءَ عباءةِ الإرادةِ؟

في اللحظةِ الَّتي نظنُّ فيها أنَّنا نُمسِكُ بخيوطِ مصيرِنا، نكتشفُ أنَّنا نحنُ الخيطَ، وأنَّ يدًا خفيَّةً – ربَّما هي القدرُ، وربَّما نحنُ في شكلٍ آخر – هي مَن تحيكُ النسيجَ.

الطريقُ لا يُروَى، بل يَروي.
كلُّ حجرٍ فيه حِكمةٌ، وكلُّ منعطفٍ اختبارٌ، وكلُّ سقوطٍ رسالةٌ.

يا أيُّها العابرُ في زِحامِ الحياةِ،
توقَّفْ قليلًا...
أَنصِتْ لِما لا يُقالُ، وانظُرْ لِما لا يُرى.
فرُبَّما لم تكنِ الحياةُ رحلةً في الزَّمنِ، بل رحلةً في الوعي.
ورُبَّما الطريقُ لم يكنْ وسيلةً، بل هو المرآةُ الَّتي تكشِفُ مَن أنتَ، لا إلى أينَ تذهبُ.

فكِّرْ...
هل الطريقُ يَمضي بكَ، أم أنَّك تمضي داخله لتكتشِفَ وجهَك الحقيقيَّ الَّذي لم ترَهُ يومًا في المرآةِ؟

تشابكُ الأرواح

تتشابكُ الأرواحُ في فضاءٍ لا يُرى،
كأنَّ الكونَ نسجَ خيوطًا خفيَّةً بيننا، دون أن نستأذنَه.
كأنَّ هناك لغةً لا تُقالُ، ولا تُكتبُ،
لغةً تُفهمُ عبر الصمتِ، عبرَ رَعشةٍ في القلبِ، أو ارتجافةٍ في المعنى.

نحنُ نُحبُّ مَن لا نعرفُ،
نشتاقُ لِمَن لم نلتقِ،
نحزنُ على وجوهٍ لم نلمحْها يومًا،
ونفرحُ برسائلَ لا عنوانَ لها سوى "الرُّوحِ".

في عالمٍ يُمجِّدُ الملموسَ،
ثمَّة شيءٌ غيرُ مرئيٍّ،
أقوى من كلِّ مرئيٍّ.
هو ذاك الشُّعورُ الَّذي يأتيك حينَ تقرأُ فكرةً كتبَها غريبٌ،
فتشعرُ أنَّها كُتبتْ لأجلك،
أنَّك كنتَ هناك، داخلَ كلماتِه، دون أن يدري.

.

الوِجدانُ لا يحتاجُ إلى مصافحةٍ،
القلوبُ تُصافحُ القلوبَ حينَ تتجرَّدُ من أسمائِها ومظاهرِها،
وتصيرُ إنسانًا، فقط إنسانًا،
تبحثُ عن النُّورِ وسطَ هذا الرُّكامِ من الظلامِ المنمَّقِ.

هل يمكنُ أن نشعرَ بقُربِ مَن لم نعرفْهم أبدًا؟
بل، ألا يكونُ هذا القربُ أصدقَ من قُربِ أجسادٌ تتزاحمُ فيه دون أن
تتلامسَ الأرواحُ؟
أليسَ في البُعدِ نوعٌ من الحميميَّةِ،
وفي الغربةِ حنانٌ لا يُفسَّرُ،
وفي المجهولِ تآلُفٌ لا يحتاجُ إلى سيرةٍ ذاتيَّةٍ؟

سؤالٌ... لكنَّه ليس ككلِّ الأسئلةِ.
إنَّه مرآةٌ، مَن نظرَ فيها بعينِ العقلِ، عَجِبَ،
ومَن تأمَّلَها بقلبِه، ذُهِلَ.
فاختزْ من أيِّ زاويةٍ ستُحدِّقُ...
لكنِ احذرْ، فإنَّك إن دخلتَ عالمَ الفكرةِ حقًّا،
قد لا تعودُ كما كنتَ.

فالفكرُ عندما يُلامسُ الرُّوحَ...
لا يُبقي شيئًا على حالِه

الحُرِّيَّةُ... قَفَصٌ من ذهبٍ أم سَماءٌ لا تُطال؟

نحنُ لا نعيشُ الحياةَ كما هي...
بل كما نُعيدُ تشكيلَها في أذهانِنا،
نصنعُ جدرانًا من مفاهيمَ،
نُلصِقُ عليها لافتةً: "الحُرِّيَّةُ"،
ثم نجلسُ بداخلِها، نُرتِّبُ القيودَ بعنايةٍ، ونُسمِّيها "اختيارًا".

نبحثُ عن الحُرِّيَّةِ داخلَ سِجنِ الفكرِ،
ونجهلُ أنَّ أشرسَ أنواعِ السجونِ ليست تلك الَّتي تُبنى بالحجارةِ،
بل تلك الَّتي تُبنى بالأفكارِ، بالمفاهيمِ، بالمُسلَّماتِ.

نقولُ: "أنا حُرٌّ"،
ثم نُسرِّحُ عقولَنا على ما قيلَ لنا إنَّه صوابٌ،
نخافُ كسرَ الأصنامِ الَّتي صنعناها بأيدينا،
ونُجمِّلُ الأغلالَ ونضعُ فوقَها تاجًا ونُسمِّيها "أنا".

فهل الحُرِّيَّةُ حقيقةٌ نعيشُها؟
أم أنَّها فكرةٌ نُسكِّنُ بها خوفَنا من العبوديَّةِ؟
هل هي نَفَسٌ من نورٍ؟
أم خيالٌ نلاحقُه، ولا نُدرِكُه إلَّا حينَ نُغادِرُ هذه الحياةَ؟

الحُرِّيَّةُ، يا صاحبي،
ليست أن تفعلَ ما تشاءُ،
بل أن تُدرِكَ لماذا تشاءُ ما تفعلُ.

أن تُحطِّمَ جدارَك الدَّاخليَّ قبل أن تلعنَ الأسوارَ من حولِك.
أن تمشيَ عاريَ الفكرِ، مُجرَّدًا من المُسلَّماتِ،
لا تابعًا، ولا متمرِّدًا...
بل نقيًّا كالسؤالِ الأوَّلِ في فجرِ الوعيِ.

فكِّرْ...
هل حقًّا نريدُ أن نكونَ أحرارًا؟
أم أنَّنا نخشى أن نُولَدَ من جديدٍ، لأنَّ الحُرِّيَّةَ وِلادةٌ...
والوِلادةُ ألمٌ؟

على هامشِ الضَّوْءِ

في زمنٍ تُغلِّفُه العتمةُ، لم يكنِ النُّورُ سوى فكرةٍ... فكرةً اختارَها قلبي وطنًا، وعقلي سلاحًا.
تعلَّمتُ أن أكتبَ لا لأبوحَ، بل لأقاومَ، أن أحملَ الحرفَ كما يحملُ الجنديُّ سلاحَه في ساحةِ المعركةِ.
كلَّما ضاقَ العالمُ، فتحتُ كتابًا... وكلَّما اختنقَ الهواءُ، تنفَّستُ من القصائدِ.

كنتُ أؤمنُ أنَّ الكلمةَ الصادقةَ، كالشَّمسِ، لا تحتاجُ إذنًا لتشرقَ.
لم أكتبْ لأُعجبَ، بل كتبتُ لأنَّ في داخلي طفلًا يخافُ أن يضيعَ في زحامِ الجهلِ.
في صمتي حِكمةٌ، وفي كلماتي شتاتُ وطنٍ يبحثُ عن ملامحِه بين السُّطورِ.

أنا ابنُ الحبرِ، ورفيقُ الورقِ، وعدوُّ النسيانِ.
وإن سألوكَ يومًا: مَن أنا؟ فقلْ: هو الَّذي غرَسَ ضوءَه في عيونِ القارئين، ومضى...

حينَ تعي أنَّ الإنسانَ كائنٌ عاطفيٌّ قبل أن يكونَ عقلانيّاً، تنفتحْ أمامَك أبوابُ فهمِه، لا منطقَ سلوكِه

فالفردُ في المجتمعِ لا يتحرَّكُ بدافعِ العقلِ الصِّرفِ، كما يحلو لبعضِ فلاسفةِ التنويرِ أن يعتقدوا، بل يُساقُ غالبًا برغباتٍ دفينةٍ، وبدوافعَ وجدانيَّةٍ، متجذِّرةٍ في عمقٍ لا شعورِه الجمعيِّ والذاتيِّ. فالعاطفةُ ليست نقيضَ العقلِ فحسبُ، بل قد تكونُ هي الَّتي تُلبسُ العقلَ قناعَ المنطقِ ليُبرِّرَ بها قراراتِه. وهذا ما بيَّنه علمُ النَّفسِ الإدراكيُّ الحديثُ، حين أثبتَ أنَّ الإنسانَ يتَّخذُ القرارَ أوَّلًا بدافعٍ وجدانيٍّ، ثم يبحثُ لاحقًا عن تبريراتٍ عقلانيَّةٍ تُرضي ذاتَه.

إذا فهمتَ هذا جيِّدًا، فإنَّ تعاملَك مع الآخرينَ لن يبقى ساذجًا، ولن تنتظرَ من الناسِ أن يتصرَّفوا "بعقلانيَّةٍ" وفقَ ما تراهُ أنتَ، بل ستفهمُ أنَّ لكلٍّ منهم هندستَه النفسيَّةَ، ومنظومتَه العاطفيَّةَ الَّتي تُحرِّكُه. وحينها، لن تُفاجأ بردودِ أفعالِهم، بل ستصبحُ قادرًا على توقُّعِها، بل وتوجيهِها.

وهنا يدخلُ البُعدُ الاجتماعيُّ: فالمجتمعاتُ، كما الأفرادُ، تتحرَّكُ على إيقاعِ الانفعالِ الجمعيِّ، لا على عقلانيَّةِ الأغلبيَّةِ. مَن يفهمْ هذه القاعدةَ، يصبحْ قادرًا على التأثيرِ، لا بالهيمنةِ، بل بالحكمةِ، قادرًا على استعمالِ طاقةِ الآخرينَ، لا لاستغلالِهم، بل لبناءِ مشاريعَ كُبرى، بذكاءٍ استراتيجيٍّ، يراعي النَّفسَ قبل العقلِ.

إنَّها ليست سيطرةً، بل فنٌّ في قيادةِ النَّفسِ البشريَّةِ، بفهمِ طبيعتِها، لا بتجاوزِها.

حينَ يُصبحُ العقلُ متاهةً

في لحظاتِ التأمُّلِ الصَّامتِ، حينَ يتخبَّطُ الفكرُ بين أروقةِ التردُّدِ والتيهِ، قد ينشأُ وَهمٌ بأنَّ الحقيقةَ كامنةٌ خلفَ بابٍ واحدٍ فقط، كأنَّ الخلاصَ فكرةٌ يتيمةٌ تنتظرُ أن تُكتشَفَ في لحظةِ استنارةٍ مفاجئةٍ. غيرَ أنَّ الذِّهنَ القَلِقَ، في بحثِه المحمومِ عن المعنى، لا يُدركُ أنَّ المتاهةَ ذاتَها قد تكونُ جزءًا من الطريقِ، لا لعنةً كما يبدو، بل شرطًا ضروريًا للنُّضجِ العقليِّ والارتقاءِ الإدراكيِّ.

إنَّك وأنتَ تحاولُ الإحاطةَ بفكرةٍ ما، تُفكِّكُها، تُعيدُ تشكيلَها، وتتشبَّثُ بها كما لو كانت طَوقَ نجاةٍ، لا تفعلُ أكثرَ من تجريبِ نوافذَ جديدةٍ للخلاصِ. وقد تظنُّ أنَّ ما وصلتَ إليه من منفذٍ هو الحلُّ النِّهائيُّ، المخرجُ الأوحدُ من متاهتِك، لكنَّ الحقيقةَ الَّتي لا يُدركُها كثيرونَ هي أنَّ لكلِّ فكرةٍ ضياعَها الخاصَّ، ولكلِّ ذهنٍ منفذَه الخاصَّ، ولكلِّ قلقٍ طريقَه المتعرِّجَ نحو السَّكينةِ.

المنافذُ لا تُكتشَفُ، بل تُختَرَعُ.
هي ليست خرائطَ جاهزةً، بل بصماتٍ فرديَّةً يرسمُها مَن عانى، مَن تاهَ، مَن كادَ يغرَقُ في جُنونِ السُّؤالِ.
ومشكلتُك قد تكونُ حلًّا مُقنَّعًا لسؤالٍ أعمقَ لم تطرَحْه بعدُ.

فلَرُبَّما كانتِ الأزمةُ كلُّها دعوةً غيرَ مباشرةٍ لتكتشفَ ذاتَك، لا لتجدَ حلًّا.
ولعلَّ ما حسبتَه ضياعًا، كان انبلاجَ وعيٍ جديدٍ، لا يفهمُه إلَّا مَن تجرَّعَ مرارةَ التيهِ وفوضى الإجاباتِ الجاهزةِ.

القلقُ ليس عدوًّا للعقلِ، بل محفِّزٌ وجوديٌّ يقودُه إلى حدودِ ذاتِه.
فلا تستعجِلِ اليقينَ، فهو آخرُ ما يصلُ إليه مَن يحترمُ المعنى.

وفي الختامِ،
سأتركُكَ مع سؤالٍ، لا يحتاجُ إلى إجابةٍ، بل إلى تأمُّلٍ:
ماذا لو كان طريقُ الخلاصِ هو أن نتوقَّفَ عن البحثِ عن الخلاصِ؟

لا تُولَدْ حراً لتُقيَّدَ بإرضاءِ بَشَرٍ

يا مَن ظننتَ نفسَكَ محورَ الكونِ، ويا مَن حسبتَ أنَّ الخَلقَ ما وُجِدوا إلَّا ليمشوا على هواكَ... مهلًا، هل نسيتَ أنَّكَ كنتَ عدمًا؟ هل نسيتَ أنَّكَ يومًا ستعودُ تُرابًا؟
ما رفعتُكَ الكاذبةُ، ولا سُلطانُكَ المُزيَّفُ، ولا أوامِرُكَ الَّتي تصرخُ بها في الوجوهِ، تستطيعُ أن تمنحَكَ الخلودَ...
فالخالقُ، لا المخلوقُ، هو مَن يقولُ للشَّيءِ كُنْ، فيكونُ.
هو الأوَّلُ، لا قبلَه شيءٌ... وهو الآخرُ، لا بعدَه شيءٌ...
وفي حضرتِهِ تتساقطُ كلُّ التيجانِ، وتنحني كلُّ الجباهِ، ويتساوى الجبَّارُ والفقيرُ، القويُّ والضَّعيفُ.

أيُّها الإنسانُ، لا تَعِشْ عبدًا لنظراتِ الناسِ، ولا تُقايضْ حقيقتَكَ من أجلِ رضاهم...
فمَن عاشَ يُرضي الخلقَ، ماتَ خاليًا من ذاتِه،
ومَن جعلَ اللهَ غايتَه، عاشَ حرًّا، حتَّى وهو مُكبَّلُ اليدينِ.
القلوبُ بينَ أصابعِ الرَّحمنِ، لا بينَ ألسنةِ البشرِ.

كُنْ كما أنتَ، لا كما يُريدونَ.
فاللهُ كافيكَ، ومَن يكفِيهِ اللهُ، لا يحتاجُ لمرايا الآخرينَ كي يرى نُورَه.

أوهامٌ خلفَ الأبوابِ المُغلَقةِ

في الزمانِ الَّذي يسيرُ فيه كلُّ شيءٍ بسرعةٍ، هناك أماكنُ مخفيَّةٌ داخلَنا، لا يُدرِكُها سوى مَن يتوقَّفُ لحظةً ليتأمَّلَ، أماكنُ مليئةٌ بالذِّكرياتِ والآمالِ الضَّائعةِ، تلك الَّتي نحبُّ أن نعتقدَ أنَّها مُغلَقةٌ بإحكامٍ، لا يمكنُ الوصولُ إليها، ولكنَّها في الحقيقةِ دائمًا في متناولِ اليدِ.

تلك الغُرفُ المُظلمةُ داخلَ أرواحِنا، الَّتي نُخبِّئُ فيها كلَّ الأشياءِ الَّتي تجرُّنا إلى الماضي، مثل سُحُبٍ قاتمةٍ مُعلَّقةٍ في السَّماءِ، تحجبُ نورَ شمسِ الحاضرِ. نعتقدُ أنَّ بإمكانِنا إغلاقَ أبوابِها بإحكامٍ، وأنَّنا نسينا ما بداخلِها، لكنَّ الحقيقةَ هي أنَّنا لا نستطيعُ أن ننسى ما نحنُ جزءٌ منه. إنَّ أعمقَ الأبوابِ الَّتي نظنُّ أنَّها مُغلَقةٌ، هي تلك الَّتي تفتحُ على أنفُسِنا في أوقاتٍ غيرِ متوقَّعةٍ، لتُظهِرَ لنا كلَّ الأحلامِ والآلامِ الَّتي تركناها في الظِّلالِ.

في لحظاتٍ معيَّنةٍ، تلمعُ تلك الومضاتُ من الماضي في عيونِنا مثل خيوطِ ضوءٍ تكسِرُ ظُلمةَ اللَّيلِ، تظهرُ أمامَنا كما لو كانت أمامَنا مرآةً تُظهِرُ لنا ملامحَنا الَّتي نتجنَّبُ النَّظرَ إليها. كلَّما اقتربنا من هذه الومضاتِ، اكتشفنا أنَّ السَّعيَ لإغلاقِ الأبوابِ لم يكنْ سوى سَرابٍ، فكلُّ محاولةٍ للهروبِ منها هي محاولةٌ إضافيَّةٌ للاقترابِ منها أكثرَ.

لكن لماذا نخشاها؟ لماذا لا نفتحُ الأبوابَ المُغلَقةَ؟ لماذا لا نسمحُ لأنفُسِنا بمواجهةِ الماضي والعيشِ في الحاضرِ؟ فالعالمُ الَّذي نعتقدُ أنَّه مُغلَقٌ هو الَّذي يحمِلُنا في طيَّاتِه على شكلِ فرصٍ جديدةٍ للنُّموِّ، والتَّعلُّمِ، والتَّجديدِ. تلك الغُرفُ الَّتي نظنُّ أنَّها مليئةٌ بالهمومِ، قد تحتوي على بُذورٍ جديدةٍ للتَّغييرِ.

الأمرُ كلُّه يكمنُ في الإدراكِ؛ في قدرتِنا على تحديدِ ما نفعله بالأبوابِ الَّتي نُغلِقُها، واللَّحظاتِ الَّتي نحاولُ أن ننسى فيها أنفُسَنا. عندما نتجرَّأ على فتحِ أبوابِ الماضي، نكتشفُ أنَّه ليس العائقَ الأكبرَ، بل هو الجسرُ الَّذي يعبُرُ بنا إلى واقعٍ أفضلَ. وربَّما ليس كلُّ شيءٍ وراءَ الأبوابِ القديمةِ جميلًا أو لطيفًا، لكنَّ كلَّ شيءٍ يتركُ فينا أثرًا، وكلُّ أثرٍ يُشكِّلُنا، ويَبني شخصيَّاتِنا، ويجعلُنا ما نحنُ عليه اليومَ.

ما يجعلُنا نتجاوزُ السَّرابَ هو إدراكُنا أنَّ كلَّ شيءٍ نتعاملُ معه هو جزءٌ من لُغزِ حياتِنا، ليس مجرَّدَ ماضٍ نخشى مواجهتَه، بل هو خطوةٌ نحو المستقبلِ الَّذي نصنعُه بأنفُسِنا.

ظلّ النافذة

لم تكن نافذتها سوى مستطيلٍ من الزجاج العتيق، تتسلَّل منه شمسُ الغروب خجولةً، لتداعب وجهها الحائرَ كلَّ مساء.
كانت ليلى تجلس قبالتها، صامتةً كتمثالٍ مُرهق، تنظر إلى العالم دون أن تراه، كأنّها تنتظر شيئًا لا تعرف له اسمًا.

في كلِّ مساء، يظهر ظلُّه على الجدار المقابل. لا صوت، لا حضورَ جسديّ، فقط ظلٌّ ثابت، كأنّ الزمان نسي أن يسحبه معه.
كانت تبتسم له أحيانًا، وتهمس في سرّها:
– "ما زلتَ هنا... رغم كلِّ الغياب."

تمرُّ السنوات كما تمرُّ قطراتُ الماء على الزجاج، بطيئةً، صامتةً، حاملةً معها بردًا لا يُحتمل.
تغيَّرت المدينة، تبدَّل الجيران، نبتت التجاعيدُ على وجهها، لكنَّ الظل... بقي كما هو.

قالوا لها: إنَّه لن يعود، وإنَّ الحياة لا تنتظر الغائبين، لكنَّ قلبها لم يُصدِّق. قلبها كان يُؤمن بأنَّ بعض الأرواح لا تُغادر، بل تختبئ في الزوايا، تُلوِّح من خلف الستائر، وتهمس للحنين لئلّا يبرد.

وفي مساءٍ بارد، اختفى الظل.

بحثت عنه بعينيها، نادت بلا صوت، ثمَّ انكمشت في كرسيِّها، وعادت تنظر إلى النافذة.

لكنَّها لم تبكِ.

كانت تعرف أنَّ الأرواح لا تُودِّع، بل تنتقل فقط إلى نوافذ أخرى...

بين الإنسان والعالم... مسافةٌ من الفهم

ليس كلّ من يرى يُبصر...
وليس كلّ من يسمع يُصغي.
العالمُ أمامنا ككتابٍ مفتوح، لكننا لا نقرأه إلّا بقدر ما نقرأ أنفسَنا.
فإن كان القلبُ مغلقًا، فكلُّ صفحاتِ الحياة أوراقٌ بيضاء، لا حروفَ فيها

الكاتب المغربي د.لطفي النحيلي

تم بحمد الله

مع تحيات فريق مجلة
نور الثقافية